(٢٠) و. إ. ب. دى بوا : أرواح السود

بقلم : إيفريت س. لى

من الصعب أن يفى المرء و. إ. ب. دى بوا حقه : لقد كان رجلاً زاخراً بالموهبة والعاطفة والحب العميق للإنسانية والإصرار المرير على مبادئه. وبسبب عنجهيته وانعدام صبره أدان كل الذين لم يتفقوا معه، وغالباً ما حاكم أصدقاءه أكثر مما فعل مع أعدائه ! وبرغم أنه كان باحثاً أكاديمياً رزيناً في مطلع حياته فإنه أصبح يؤمن بقيمة الدعاية التى وضعها فى مرتبة أعلى من الدراسة الأكاديمية، وملأ صفحات عدة بالكلمات الجارحة والمبالغات المفروغ منها ! ومع ذلك فقد كان واحداً من عظماء عصره، وأحد قلة من الزعماء البارزين للزنوج. ألف كتاباً بعنوان «أرواح السود»[١] استطاع أن يحتل مكانة مرموقة بين كتب قليلة كانت بمثابة مؤشر إلى نقطة التحول فى الحركة الاجتماعية.

وقد اعترف الجميع بهذه المكانة منذ البداية لدرجة أن مراقباً متفحصاً مثل جيمس ويلدون جونسون – الكاتب الزنجى والموسيقى والدبلوماسى – وصفه بأن له «تأثيراً متعاظماً على خارج وداخل الجنس الزنجى أكثر من أى كتاب آخر نشر فى هذه البلاد منذ «كوخ العم توم !»[٢] لقد كرموه وبجلوه على أنه «الإنجيل السياسى» للزنوج المتعلمين، فى حين بزغ نجم دى بوا على أنه «المسيح السياسى الذى طال انتظاره !»[٣] ومنذ أن ظهر كتاب «أرواح السود» لأول مرة فى ربيع ١٩٠٣ وطبعاته تتوالى حتى بلغت أكثر من عشرين طبعة ومازالت

تنشر حتى الآن . ولم يستطع أى كتاب آخر ألفه زنجى أن يحدث مثل هذا التأثير على أمريكا مثلما فعل هذا الكتاب !

وإنه لمن المثير للاستغراب أن دى بوا لا يلقى إليه التفاتاً كبيراً فى سيرته الذاتية التى كتبها بعنوان « غسق الفجر »[٤] والتى يسجل فيها ببساطة أنه بعد أربعين عاماً من تأليف كتابه مازال يشعر بالرضا ؛ لأن جمهور القراء لايزال يقبل على شرائه مما يثلج صدره . وفى السيرة الذاتية نفسها يوضح أن الكتاب المفضل بين الكتب التى ألفها هو « الأميرة السمراء »[٥] وهو رواية جافة زاخرة بالافتعال وتقرأ الآن فقط لمجرد أن دى بوا هو مؤلفها . كما يوضح أيضاً أن من أفضل الإنجازات التى قام بها كانت كتابة سيرة جون براون[٦] المناهض للرق والذى كان بالنسبة لدى بوا شهيد معدية هاربر . ولم تكن السيرة أكثر من اقتباس مقتطفات من كتّاب آخرين أضاف إليها دى بوا تفسيراً غريباً ومتحيزاً ، لذلك كان الهجوم عليه وإدانته بمثابة إحقاق للحق ؛ وفى السنوات السبع الأولى بعد نشره لم يوزع سوى ستمائة وخمس وستين نسخة . وقد علل دى بوا ذلك بالشر الذى أضمره له الكتّاب الذين تعرضوا له بالكتابة فى الصحف والمجلات مما دفعه إلى الخروج عن الأصول المرعية فى مهاجمتهم فى عقر دارهم . وبحكم سيطرتهم على الصحافة الأكاديمية فقد منعوا عنه أية فرصة للرد عليهم[٧] !

وعلى أية حال فإن الكتّاب نادراً ما يكونون أفضل الحكام على أعمالهم ، ويستطيع هجوم على كتاب سيئ أن يشعل ذلك النوع من الدفاع غير النقدى الذى لا يزيد فى قدره عن عملية تقويم يقوم بها طفل أهوج قاصر ! وكان دى بوا – أكثر من أى أحد آخر – عاجزاً عن الاعتراف بالنقص سواء فى شخصه أو فى عمله ! كان من ذلك النوع من الرجال الذين كتب عليهم أن يقفوا بمفردهم منعزلين ! كان عليه أن يقود لأنه لم يستطع أن ينقاد لأحد ! فقد تعادل تضخم ذاته واحتقاره للبشر العاديين وبسبب انهماكه فى ذاته ووقوعه أسيراً لقضية الأعراق والأجناس – فقد سمح للملاحظات المستمدة من سيرته الذاتية أن تدس بأنفها فى عمله فى أبعد الأماكن توقعاً لهذا ! بل إنه وقع فى الخلط بين الملاحظات الحادة والمهاترات التى لا تعرف لنفسها حدوداً ! كان بطلاً بالنسبة للآلاف لكن بدون تلميذ واحد ؛ حقق نجاحاً باهراً وفشلاً مذهلاً فى الوقت نفسه ولم يميز بوضوح بين هذا وذاك !

وكان عمل دى بوا إلى حد كبير امتداداً لشخصيته بحيث تتحتم علينا دراسة الرجل وعصره

لكى نفهم عمله : فقد ولد بعد ثلاث سنوات فقط من انتهاء الحرب الأهلية ، ولم يمت إلا فى عام ١٩٦٣ : أى بعد ذلك بمائة عام تقريباً. وظهر أول كتاب له عندما كان فى الثامنة والعشرين من عمره ، ولم يتوقف عن الكتابة حتى وفاته أى بعد ذلك بثلثى قرن . ويمكن لعناوين الكتب التى ألفت عنه أن تملأ صفحات كثيرة ، فقد كان محرراً ومؤرخاً ؛ كما كان عالم اجتماع وكاتب مقال وروائيًّا وشاعراً . وكانت أعماله المبكرة دقيقة للغاية وأكاديمية بمعنى الكلمة ، لكنه فى منتصف حياته أصبح مهملاً فيما يتعلق بالحقائق ، بل تجاهلها أحياناً ، ولوى عنقها أحياناً أخرى لكى تناسب غرضه .

ويأتى كتاب « أرواح السود » قريباً من المرحلة الانتقالية ، فقد كتبه بدقة ووضوح . هنا لا يصبح الإقحام العرضى للرمزية غير المحكمة وللتظاهر بالفكر العميق بدون جاذبية وسحر ! ومن وجهة النظر الأدبية فإن كل شىء عمله دى بوا قبل ذلك كان مجرد مقدمة ، وما كتبه بعد ذلك يضيف قليلاً إلى شهرته كباحث أكاديمى أو ككاتب على الرغم من أنها أضافت كثيراً إلى مكانته كزعيم مناهض للتفرقة العنصرية .

ولد دى بوا فى بارنجتون العظمى فى ماساتشوستس ، وهى مدينة صغيرة على تلال نيو إنجلاند حيث الرياح الداكنة العاتية تهب بين الهوساك والتاجكانيك إلى البحر »[٨] كان مولداً : فمن ناحية الأب كان سليل عائلة فرنسية بروتستانتية فى حين كانت أمه عبداً لأبيه وعشيقته المولدة فى الوقت نفسه ! ومن ناحية أخرى فقد اختلطت دماؤه لدرجة أن دى بوا ولد « وفيضان من الدم الزنجى يجرى فى عروقه ، ومجرى آخر فرنسى مع جزء هولندى ، لكنْ حمداً لله ، لم يكن عنده أى دم أنجلو – ساكسونى ! »[٩] .

وقد اعتبر بعض أقاربه – من البيض وترعرع أبناؤهم وهم يجهلون تماماً أصولهم السوداء ! عاش مع أمه فى منزل أبيه منذ أن هجرهما لكى يجرب حظه كحلاق وكواعظ فى المدن النائية إلى أن اختفى نهائيا بعد ذلك .

وفى بارنجتون العظمى بلغ التحيز العنصرى أدنى درجة له ، ولم يصبح دى بوا واعياً تماماً بالفجوة بين الأجناس حتى رفضت فتاة قدمت حديثاً إلى المدينة أن تأخذ دعوة دى بوا لزيارته على سبيل مصادقتها ! وهى الدعوة التى قبلتها من شبان آخرين فى المدينة . منذ ذلك الوقت أدرك أنه « كان مختلفاً عن الآخرين ، ربما مثلهم فى القلب والحياة والشوق ، لكنه منبوذ من عالمهم بحجاب شاسع ! »[١٠] وكان إدراكه لهذا الحجاب قد حرك فى دى بوا أعمق

العواطف بقية حياته ، لكنه يعلن : « لم يكن لدىّ عندئذ أية رغبة فى تمزيق هذا الحجاب وأن أزحف خلاله ، فقد تخطيته فى احتقار عظيم ، وارتفعت فوقه فى منطقة من السماء الزرقاء والظلال الهائمة العظيمة ! كانت السماء أكثر زرقة عندما تفوقت على أقرانى فى وقت الامتحان ، أو هزمتهم فى سباق الأقدام ، أو حتى عندما ضربت رءوسهم الدموية ! »(١١)

وكان دى بوا موفقاً فى المدرسة العليا وشجعه المدير على إعداد نفسه للكلية وكان يهدف إلى الالتحاق بهارفارد ، لكن أهالى بلدته جمعوا له المال الذى يكفى إرساله إلى فيسك حيث وجد نفسه لأول مرة فى عالم ملون التى فيه وفتيات سوداوات جميلات . وقد عاد مراراً إلى العزف على نغمة الجمال الأسود وفى « غسق الفجر » لاحظ أنه لا يمكن أن يكون هناك جدل حول تفوق ألوان البرونز والماهوجى والبن والذهب على البمبى والرمادى والرخامى فى ميدان الجمال والجاذبية » .

وأضاف أن الشَّعر مسألة ذوق ، لكنه فضل « النوع المتجعد الذى يتماوج غالباً بلون أسود أو بنى أو ذهبى براق »(١٢) وكره « الملامح المستقيمة ؛ فالإبر وشفرات الحلاقة ربما تكون حادة لكنها لا يمكن أن تكون جميلة » . واختار بصفته « ابناً » للشفق والليل - الشَّعر المتجعد بشدة ، والعيون السوداء ، والملامح المملوءة المثيرة لمباهج الحس والروح ، ولمحات التواضع والدهشة التى تسيل مع ضوء القمر .

أضف إلى هذا الأصوات التى تحتضنك بدلاً من الأصوات الخشنة ، والنظرات التى تجذبك بدلاً من أن تنفرك ، والحركة الوئيدة الزاخرة بالمنحنيات التى تحل محل الخطوات الأنجلو سكسونية الصارمة : من هذا تستطيع أن تدرك مثلى الأعلى »(١٣) .

تخرج فى فيسك ثم التحق بهارفارد حيث كرر منهج التعليم المتوسط والعالى وبعد ذلك حصل على منحة للزمالة تؤهله لدراسة التخرج . فى هارفارد درس مع وليم جيمس وقرأ كانط مع جورج سانتيانا . وقد نصحه جيمس أن ينأى عن الفلسفة ، لكن ألبرت باشنل هارت أخذه إلى مجموعة أبحاث التاريخ . وأسلم قياده لهارت فى محاولة لفهم الحاضر من خلال دراسة المؤسسات وتطورها ، فقام بفحص القوانين البرلمانية ، وسجلات الكونجرس ، والمستندات التنفيذية ، والسجلات المعاصرة التى تتضمن مسألة تجارة العبيد فى أفريقيا . وقاده هذا فى حينه إلى رسالته للدكتوراه : «توقف شراء العبيد الأفريقيين للولايات المتحدة الأمريكية ١٦٣٨ - ١٨٧٠ » والتى نشرت كأول كتاب فى سلسلة هارفارد التاريخية .(١٤) وإذا كان هذا

الكتاب قد صدر عام ١٨٩٦ فقد أعيد طبعه فى عام ١٩٦٥ ، إنه عمل دقيق متقن ، ويثير الإعجاب تماماً !

وفى نهاية السنة الثانية لدراسته للتخرج ألح دى بوا على مؤسسة سالتر لكى تسمح بتمويله على أساس أن يكون جزء من التمويل بصفة منحة والجزء الآخر بصفة قرض ، وذلك للدراسة فى ألمانيا . وبالفعل وصل إلى هولندا التى وصفها بأنها « بركة طينية نظيفة ومنسقة تماماً عند ملتقى اللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية ! »[١٥] وفى أوربا تعلم شيئاً عن الجمال والرشاقة ، وأصبح ملماً بسيمفونيات بيتهوفن وألوان تيسيان ، واستطاع مغازلة الفتيات البيضاوات . وشعر تجاه إحداهن بضرورة تحذيرها من الصعاب التى ستقابلها إذا تزوجته ، وأخذها إلى أمريكا !

فى جامعة برلين انضم إلى دورات الأبحاث التى أدارها جوستاف شمولر وأودولف فاجنر ، والتى حصل منها على شهادات تقدير للعمل الذى أنجزه . ودرس أيضاً مع هينريش تريتشكه وسمعه يصرخ ويرعد بقوله : « المولدون ينتمون إلى جنس أدنى ! »[١٦] .

وفى نهاية السنتين عاد إلى الولايات المتحدة ، وعلى الرغم من أنه كان من أرقى الزنوج تعليماً وثقافة فى البلاد فإنه وجد صعوبة فى البحث عن وظيفة ! وعندما عرض عليه كرسى الكلاسيكيات فى جامعة ويلبرفورس فى أوهايو – وهى مجرد مدرسة صغيرة للزنوج – قبل على الفور ، وبهذا لم يستطع قبول عرض بوكر ت . واشنطن الذى جاءه بعد ذلك ، لكى يقوم بتدريس الرياضيات فى تاسكجى .

وصل دى بوا إلى ويلبر فورس مرسلاً لحية على طراز فاندايك ، ومتفاخراً بالقبعة الحريرية العالية والقفازات وعصا الدارس الأكاديمى فى ألمانيا . وقام بتدريس اللاتينية واليونانية والإنجليزية والألمانية ، وربما أضاف علم الاجتماع إذا سمح له بذلك .

وغالباً ما شعر بالسعادة فى البداية ، لكن سرعان مازال الوهم عنه ورأى ويلبرفورس على حقيقتها حيث ارتفعت النغمة الأخلاقية والدينية إلى مستوى النشاط الفكرى . وأوشك أن يفقد وظيفته لرفضه الصلاة فى اجتماع للطلبة ! وقد لاحظ فى مذكراته أنه فى خلال الأسبوع الذى تتوقف فيه الدراسة من أجل الإحياء الدينى « كان يوشك أن يُجَنَّ بسبب الصراخ والأنين والنشيج الذى يصدر من الكنيسة الصغيرة التى تحت شقتى ! »[١٧] .

فى ويلبرفورس قابل زوجته ، فتاة سوداء العينين من أم غجرية . وبعد ذلك بعامين وجد

الخلاص من تعسه الوظيفى عندما عرضت عليه جامعة بنسلفانيا دراسة مجتمع الزنوج فى فيلادلفيا . وحصل على منحة تفرغ ألف فيها كتابه « زنجى فيلادلفيا »[١٨] الذى اعتبره جونار مايردال – بعد نصف قرن تقريباً – دراسة نموذجية لمجتمع زنجى .[١٩] وكدارس قح بلغ دى بوا القمة فى كتابه هذا ؛ وكانت محاولاته الأكاديمية التالية عدة ، لكن ليس بينها البحث الذى يصل فى قيمته مستوى التركيز وبلوغ النتائج المحددة نفسه !

ومن فيلادلفيا ذهب دى بوا إلى جامعة أتلانتا لكى يشرف على العمل فى مجال علم الاجتماع . وكشرط من شروط الالتحاق بالوظيفة كان عليه أن يوافق على الاشتراك فى الصلوات العامة التى كتب عنها : « لم أكن متيقناً : هل كانت أرثوذكسية أو أنها بلغت السماء ؟ لكنها بالتأكيد بلغت جمهور المستمعين »[٢٠] .

وفى بحثه لاكتشاف قوانين السلوك الإنسانى خطط برنامجاً طموحاً يشتمل على دراسات للزنجى الأمريكى ظهرت نتيجتها فى « مطبوعات » جامعة أتلانتا . ولم يحصل إلا على دعم تافه لهذه الجهود ، سواء كان دعماً مالياً أو غير ذلك . وكانت « المطبوعات » ذات قيمة متفاوتة : فأحياناً كانت جيدة تماماً ، وفى معظم الأحيان كانت سطحية وهزيلة . وعلى أية حال لم يكن هناك شىء آخر يعادلها فى القيمة ، ولذلك أصبحت أساساً بالنسبة للدراسات المعاصرة للزنوج .

وكان قد قضى فى أتلانتا ست سنوات عندما سألته مؤسسة ماكليرج وشركاه : هل لديه مادة لكتاب جديد ؟ واقترح دى بوا ملخصاً لمؤتمرات أتلانتا التى أدارها ، لكن الناشر كان يرغب فى شىء عاجل وفورى ، وذكر بعض المقالات التى ظهرت فى مجلة « أتلانتيك الشهرية » وفى أماكن أخرى . وافق دى بوا على تجميع بعض هذه المقالات والقطع الأخرى المجهولة . وأضاف إليها فصلاً بعنوان « عن السيد بوكر ت . واشنطن وآخرين » وأطلق على المجموعة « أرواح السود » . وكان هذا الفصل المضاف هو الذى منح الكتاب أهمية فورية ودائمة دفعت بدى بوا إلى الصف الأول للزعماء الزنوج ، وخاضت به سنوات من الجدل المرير !

كان بوكر ت . واشنطن أقوى زنجى أمريكى فى عصره ، ولم يحز أى شخص آخر مثل هذه المكانة المرموقة . وقال دى بوا نفسه : إن « أكثر الأشياء إثارة وأهمية فى تاريخ الزنجى الأمريكى منذ ١٨٧٦ هو صعود السيد بوكر ت . واشنطن »[٢١] ، وأطلق عليه لقب « أبرز

أمريكى من الجنوب بعد جيفرسون ديفيز ، وكان له من الأتباع الشخصيين ما فاق عدد أتباع أى زعيم زنجى آخر »[٢٢] وكان رؤساء الجمهورية يعتمدون على نصيحته ، وأذعن أندرو كارنيجى وجون د . ركفلر لرأيه وحكمه ! وجمعت الأموال على يديه من أجل تعليم الزنوج ، وكان مستقبل الأساتذة والمفكرين يتحدد بكلمة منه ! وفى كل المجالات كان واشنطن رجلاً مرموقاً :

ولد فى أحد أكواخ العبيد ابناً لأب أبيض ، ومع ذلك حصل على تعليم لم تكن الظروف تتيحه على الإطلاق ، وأسس معهد تاسكجى بالاعتماد على نفسه تقريباً . وعلاوة على ذلك فقد كانت شخصيته بارزة ولا تقبل أى جدل حول قيمتها لدرجة أنه رُحِّب به فى أماكن لم يكن أى زنجى آخر يستطيع الذهاب إليها ! وزار ثيودور روزفلت فى البيت الأبيض ، وتناول الشاى فى قصر وندسور مع الملكة فيكتوريا ! لكن الشيء الذى أكسبه هذه المكانة الأثيرة عند المجتمع الأبيض كان برنامجه من أجل تقدم الزنوج ، وهو الذى لخصه فى حديثه الهام فى معرض الولايات للقطن فى أتلانتا عام ١٨٩٣ . وبناء عليه لم يلق بالاً إلى المطالب الملحة من أجل المساواة الاجتماعية ، وأوصى بأنه يتحتم على الزنوج أن يحصلوا على امتيازاتهم من خلال الجهد الشاق والمستمر فى مجالات الزراعة والميكانيكا والخدمة المحلية ومختلف الحرف ، وليس من خلال الإقحام المصطنع للذات !

وعندما أشار إلى اختلاف الأجناس رفع يده ونشر أصابعه منفصلة بعضها عن بعض وأعلن : « فى كل الأشياء ذات الطبيعة الاجتماعية الخالصة يمكننا أن نكون منفصلين مثل الأصابع ، لكن لابد أن نكون كلنا يداً واحدة فى الأشياء الضرورية للتقدم المشترك ! »[٢٣]

لم يكن دى بوا ذلك الرجل الذى يتقبل سياسة الحلول التدريجية ، أو يتحلى بالصبر إذا كان الزنوج اكتسبوا مهارات الزراعيين والحرفيين أو جمعوا مبلغاً صغيراً من المال لكى يبدءوا فى مشروعات مستقلة . ولم يكن دى بوا أيضاً ضد تدريب الصناع والحرفيين ؛ فقد أدرك أهميتها لجماهير الزنوج ، لكن دى بوا فوق كل هذا علق آماله على « الموهوبين العشرة » وهو اصطلاحه الذى يطلقه على القلة الموهوبة التى تتدرب فى الجامعات والكليات ؛ لكى تقدم المدرسين والمهنيين والقادة .

وبحكم أنه كان أرستقراطياً فى أعماق قلبه فقد كان إيمانه بالجماهير ضعيفاً . وعلاوة على ذلك شعر أنه مهدد بصفة شخصية من قبل واشنطن ومفهومه الحرفى الذى تمثل فى معهد

تاكسجى الذى أقامه ، كما احتقر استسلام واشنطن وحبه لإلقاء المواعظ .

ومع ذلك فقد كان دى بوا عادلاً بالنسبة لواشنطن فى مقالته عنه ، وأرجع اليه فضل إنجازين عظيمين : الأول : أن واشنطن قام بمهمة تكاد تكون مستحيلة وهى اكتساب تعاطف الجنوب الأبيض وتعاونه . وقد فسرت بعض عناصر برنامجه كأساس للتفاهم المشترك فى حين اعتبرها الآخرون تغاضياً تامًّا لضرورات المساواة المدنية والسياسية ، وفى الوقت نفسه حصل واشنطن على تقدير الشمال بتحمسه لروح الصناعة والتجارة التى أشاعت الحياة فى ذلك الجزء من البلاد . بسبب هذه الإنجازات تدفقت المكاسب على الزنوج الأمريكيين لكن المقابل – فى رأى دى بوا – كان باهظاً .

لم يكن هناك سوى التفات ضئيل إلى حساب المدين فى الدفتر ، وربما – على أية حال – لأن النقد كان صامتاً عندما كان واشنطن يتحدث إلى الشعب الزنجى . وفى نظر دى بوا فقد طلب واشنطن من الزنوج أن يصرفوا النظر عن ثلاثة أشياء ثمينة : القوة السياسية والإصرار على الحقوق المدنية والتعليم العالى لشباب الزنوج ! وطلب منهم التركيز على التعليم الصناعى ، وتجميع الثروة ، ومسايرة الأحوال فى الجنوب . وفى مقابل ذلك حرم الزنوج حقوقهم المدنية : أى أصبحوا فى مكانة مدنية أدنى ومعترف بها قانوناً كما ألغيت المساعدات التى كانت تقدم لمؤسسات التعليم العالى للزنوج . وقد أدى هذا إلى التناقضات التى وقع فيها برنامج واشنطن .

وعلى الرغم من أن واشنطن حاول بشجاعة تحويل الزنوج إلى رجال أعمال وأصحاب أملاك فإنه كان من المستحيل بالنسبة لهم حماية حقوقهم إذا لم يملكوا حق التصويت . وعلى الرغم من أن واشنطن أكد قيمة الاقتصاد فى المال واحترام الذات فإن إذعانه هذا أدى إلى ضياع إرادة الصمود والإصرار عند الجنس كله . وفى النهاية فإن وضع التدريب الصناعى فى مرتبة أعلى من التعليم العالى كان بمثابة هزيمة للنفس بسبب الحاجة إلى المدرسين المدربين فى كليات الزنوج . واعتراضاً على واشنطن كان من الضرورى المطالبة بأشياء ثلاثة : حق التصويت ، والمساواة المدنية وتعليم الشباب طبقا لمقدرتهم ! وبالقدر الذى أدى بواشنطن إلى الوقوف وراء الاقتصاد فى المال والصبر والتدريب الصناعى للجماهير والذى أيدته الجماهير وصفقت له – كان عليه أن يعتذر عن الظلم الذى نتج عن هذا ؛ فقد فشل فى تقدير قيمة التصويت ، كما فشل فى إدراك التأثير المضعف للفروق الطبقية الشاسعة ولنقصان التعليم العالى ؛ مما أدى إلى معارضة الجماهير له والوقوف ضده .

وقد تعرض دى بوا للهجوم الرافض من قبل صحافة الزنوج والبيض على حد سواء : وذلك بسبب هجومه على واشنطن . ونظر إليه « الأمريكى الملون » على أنه محاولة لبيع كتاب لا يستحق من الانتباه إلا القليل ، فى حين أنه من المحتمل أن الكتاب بدون ذلك الفصل عن واشنطن كان سيقابل باللامبالاة التى كانت هى نفسها مصير معظم كتب دى بوا !

وليس من الحقيقى أن القيمة التى تحتوى عليها الفصول الأخرى من « أرواح السود » قيمة هزيلة ، فعلى النقيض من ذلك تماماً كان للكثير من الفصول قيمة ملحوظة مثل : التقارير المعاصرة الحساسة التى تصف الأوضاع فى الجنوب ، وغيرها كثير من التى تصور بأسلوب آسر حزن الروح الحساسة التى لم تفقد كبرياءها عندما أجبرت على العمل فى وضع مهنى أدنى !

ولابد من الاعتراف بأن تنظيم المقالات فى الكتاب كان مفتعلاً ومقحماً على الرغم من أن دى بوا حاول تقديم تبرير موجز لذلك فى مقدمته ، فيقول : إن الكتاب محاولة لإظهار معنى أن تكون أسود فى القرن العشرين ! حاول أولاً أن يبرز معنى تحرير الزنوج ذوى الوعى الثقافى العالى ، ومن هذا المنطلق يفحص ويحلل صعود القيادات الزنجية كما فى تلك المقالة المشهورة عن واشنطن . فى هذه النقطة يصف العالم داخل وخارج هذا الحجاب ، ثم يرفع الحجاب ؛ لكى يكشف عن حدة وفورة الصراع الذى يخوضه السود (٢٤) !

ويستهل كل فصل من فصول الكتاب بجملة من إحدى « الأغانى الحزينة » التى يعتبرها الزنوج الأمريكيون من مراسيمهم الروحية العظيمة ، ثم يختم دى بوا الكتاب بمقالة عن الموسيقى يتكلم العبد من خلالها إلى العالم . يبدأ الكتاب ببيت من « لا أحد يعرف المعاناة التى خبرتها ! » فى حين تبدأ الفصول الأخرى بسطور متوترة من « تأرجحى إلى أسفل أيتها العربة الجميلة » ، و « يا نهر الأردن تدفق وتدفق » ، و « طريقى غمره السحاب ». تلك الأغانى « التى توالت مع القرون » هى بالنسبة لدى بوا « موسيقى القوم التعسين والأطفال أبناء اليأس ! إنهم يتحدثون عن الموت والمعاناة والتطلع الصامت إلى عالم أكثر صدقاً ، وأيضاً عن الهائمين على وجوههم وسط الضباب وفى الطرقات الخفية ! » (٢٥) لكن من خلالهم يتنفس الأمل والإيمان بالعدالة المطلقة . هذه هى النغمة التى يختم بها دى بوا كتابه .

أهدى دى بوا « أرواح السود » إلى ابنيه بيرجارت ويولاند : يولاند التى سرت خاطره بحفدتها ، وبيرجارت الذى مات فى طفولته المبكرة . فقد أسماهما المفقود والموجود ! وفى مقالة آسرة يصف فرحته بابنه وفجيعته فى موته . يقول : إنه لم يحب الطفل أول الأمر ؛ لأنه بدا له

أول الأمر أن الحب مثير للسخرية إذا انصب على كائن ضئيل لا شكل له ! « عبارة عن رأس وصوت فقط ، لكنه تعلم أن يحب الطفل من خلال الأم التى أدى ميلاد الطفل إلى إحساسها « بالتجلى مثل روعة الصباح ! »

لكن الطفل ولد وراء الحجاب وكتب عليه أن يعيش وراءه أيضاً ، فهو زنجى وابن زنجى ؛ إنه زنجى فى عالم رأى فيه دى بوا الحرية الشخصية نكتة تهكمية ، والحرية العامة كذبة شائعة ! وعندما مات نقله أبواه إلى الشمال لأنهما لم يرغبا فى دفنه فى جورجيا . وفى يوم الجنازة اجتاح دى بوا فرح « مرعب وهمست روحه قائلة له : « إنه ليس ميتاً ! ليس ميتاً بل هرب بجلده ! ليس عبداً ، بل استرد حريته ! » وواسى دى بوا نفسه بقوله : « حسناً » أسرع يابنى قبل أن يعتبر العالم طموحك وقاحة ، وقبل أن يمنعك من تحقيق مثلك العليا ، وقبل أن يعلمك : كيف تسلك بمذلة وتنحنى لهذا ولذاك ! »(٢٦)

ولا يحوز أىٌّ من الفصول الأخرى فى الكتاب أهمية المقالة التى تدور حول واشنطن أو على أثر المقالة التى تتخذ من موت ابنه البكر مضموناً لها . ومع ذلك فإنها تصل أحياناً إلى درجة ملحوظة من الحدة فى الشعور وبعد النظر :

فى إحداها يقدم دى بوا رؤيته للعمل الذى قام به مكتب فريدمن وهو الوكالة التى أنشئت لمعالجة مشكلات العبيد السابقين والتى ألغيت قبل أن تتم عملها . وتعالج مقالات متعددة ظروف حياة الزنوج فى الجنوب عند انتهاء القرن ، بل هناك قصة قصيرة بعنوان « عن مجىء جون » تصور المجهودات التى يقوم بها شاب زنجى للحصول على التعليم حتى يقوم بدوره بتوصيله إلى أبناء الزنوج . وهناك مقالة عن « تدريب الرجال السود » تصور المجهودات التى بذلت لتعليم زنوج الجنوب ، وتؤكد أن الزنجى قادر على التعليم العالى ، وهى قضية كانت مثار جدل ومحل مناقشة فى ذلك الوقت .

فى « أرواح السود » كان دى بوا الكاتب المنظم الذى لايزال يعكس موضوعيته الدقيقة التى تعلمها فى هارفارد والتى درب نفسه عليها فى كتبه عن تجارة الرقيق وزنوج فيلادلفيا . ولا نجد سوى القليل العرضى من التشتت والاستعارات المفتعلة التى سيطرت على أعماله فيما بعد والتى حذره منها مدرس الإنجليزية فى هارفارد

فى هذه النقطة من حياته كان دى بوا لايزال يعتقد أنه من الممكن عودة الشمل بين الجنسين ، وكان لا يزال يؤمن بعلم لا ينظر إلا إلى الإنسان فى ذاته ، وكان لاتزال لديه المقدرة

على أن ينأى بعواطفه عن الموجودات حوله ، وأن ينظر إلى أشد المواقف إثارة للفجيعة بدون الانفجار غاضباً أو الضرب بسياط السخرية المريرة . كان لا يزال ملاحظاً حساساً ، متقبلاً للجمال ، وبعيداً عن الموقف الذى اتخذه فيما بعد عندما أعلن : «أنا لا ألقى أدنى اهتمام بأى فن لا يستخدم فى أغراض الدعاية ! »[٢٧]

بعد سنوات قليلة من نشر «أرواح السود» غادر دى بوا أتلانتا ؛ لكى يصبح رئيساً لتحرير مجلة «الأزمة» لسان حال الاتحاد القومى لتقدم الملونين .

وكانت مقالاته الافتتاحية القوية وصوره للموقف الراهن من العوامل المهمة فى دفع قضية الزنوج الأمريكيين إلى الأمام . وعندما تخطى دى بوا حدود الاهتمامات القومية حالف حركة البان الأفريقية ومن ثم تبنى الماركسية التى لم يتمكن إطلاقاً من استيعاب مبادئها تماماً ، لكنه فسرها لكى تناسب رؤيته الخاصة للتاريخ والصراع العنصرى .

وشيئاً فشيئاً تزايدت غربته فى العالم الأبيض . وفى نهاية الأمر لم يعد يبحث عن التوحد أو النجاح من خلال التعاون مع البيض . وبدلاً من ذلك طالب بإقامة مجتمع زنجى مستقل داخل أمريكا ، ويقتصر فقط على المشروعات السوداء ، والمدارس السوداء ، والموظفين السود وسلسلة كاملة من المؤسسات المنفصلة ، وأيد إنشاء كليات زنجية وتحدى الفكرة التى تقول : إن المؤسسات المنفصلة غير المشتركة هى أدنى مرتبة بحكم الضرورة . وقد حاول تنفيذ خطة شاملة من أجل الاكتفاء الذاتى للزنوج ، ونجح فى عزل عدد لا يستهان به من زعماء الزنوج الشباب . كان دى بوا يتحرك ضد التيار بين بنى جنسه هو ، وكما لاحظ صديقه فرانسيس ج . جريمكه أنه إذا فكر أن فى استطاعته العودة بالزنوج إلى العزلة فلابد أن تكون هذه هى نهاية زعامته[٢٨] .

وعلى النقيض من واشنطن كان مؤيدو دى بوا من البيض قلائل ، وبحكم أنه المتحدث الرسمى البارز لبنى جنسه فقد وقف فى مهب الهجوم من كلا المحافظين والراديكاليين : رأى فيه المحافظون شخصاً عدوانيا بأسلوب مبالغ فيه فى حين حكم عليه الراديكاليون الزنوج فى العشرينيات من هذا القرن بأنه أسير المؤسسة البيضاء ، ووصفه محررو جريدة «الرسول» الراديكالية التى أصدرها إ . فيليب راندولف وتشاندلر أوين بأنه «المفضل عند الرؤساء ، السائر فى ركابهم وقبعته فى يده ، اللاهث وراء عطفهم ، والمتملق لجاههم ، واللاحس لبصقاتهم! »[٢٩]مثله فى ذلك مثل بعض الزنوج الذين اختيروا لهذه المهمة ؛ لكن دى بوا لم يأمل

الكثير على أيدى البيض ، أما مسألة هجوم الزنوج عليه ، وخاصة من هؤلاء الذين ينتمون إلى اليسار – فقد كانت ضربة قاسية !

وعندما أخرج من رياسة تحرير مجلة « الأزمة » بسبب مشاحناته مع هيئة التحرير وعدم رغبته فى التسامح مع التدخل فى أسلوب إدارته للمجلة – عاد دى بوا إلى جامعة أتلانتا حيث أسس مجلة « فايلون » التى أصدرتها جامعة أتلانتا لكى تكون بمثابة « مجلة الجنس البشرى والثقافة » هنا بدأ مرة أخرى برنامجه لدراسة الزنوج الأمريكيين ، وأخذ على عاتقه إيجاد « موسوعة الزنوج » وإكمالها ؛ وتحول انتباهه بعيداً عن الموقف الأمريكى – على أية حال – بسبب اهتمامه المتزايد بأساليب الاحتلال والعودة إلى الجذور الأفريقية . وعندما بلغ السابعة والسبعين من عمره نشر كتاباً بعنوان « اللون والديمقراطية : المستعمرات والسلام »[٣٠] عالج فيه العنصرية والاستعمار وأدان فيه فشل مؤتمر دامبارتون أوكس فى تأكيد حقوق سكان المستعمرات الأصليين . وعندما بلغ الثالثة والتسعين انضم إلى الحزب الشيوعى معلقاً بقوله : إنه « تأخر طويلاً عندما وصل ببطء إلى هذه النتيجة ! » وعندما بلغ الرابعة والتسعين أصبح مواطناً من مواطنى غانا حيث قضى السنوات الأخيرة من حياته . وجاء موته فى ٢٧ من أغسطس ١٩٦٣ فى الوقت الذى وقع فيه الزحف الأعظم على واشنطن حين تجمع ربع مليون من البشر هناك ، وقفوا لحظات حداداً عليه واعترافاً بمكانته !

كانت حياته الطويلة مملوءة بالصراع والتناقض ، لكنها كانت ذات إنجاز ضخم هائل ؛ وربما وصف دى بوا نفسه حقاً عندما قدم لنا صورة الزنجى الأمريكى فى فقرة لا تنسى من « أرواح السود » قال :

« إنه مجرد ابن سابع لأبيه ، ولد وراء الحجاب ، ووهب نظرة فاحصة لهذا العالم الأمريكى ، إنه عالم لا يمنح الزنجى أى وعى حقيقى بذاته ، لكنه يمنح الفرصة فقط لكى يرى نفسه خلال رؤية العالم الآخر . إنها لأحاسيس متناقضة : هذا الوعى المزدوج ، هذا الإحساس الدائم بالنظر إلى الذات من خلال عيون الآخرين ! وبتقويم روح الإنسان بمقياس عالم ينظر إليها باحتقار وشفقة على سبيل التسلية . ويشعر الإنسان دائماً بالازدواجية بين كونه أمريكياً وكونه زنجياً ، إنه روحان ، رأيان ، خطان لا يلتقيان من الصراع ، نموذجان يتصارعان داخل جسد أسود واحد لم يمنعه شىء من التمزق إرباً إرباً سوى قوته الصلبة العنيدة ! »[٣١]

ملاحظات

١ – شيكاغو ، ١٩٠٣ . والمراجع التى فى الصفحة تشير إلى الطبعة المعادة فى «ثلاثة أعمال زنجية كلاسيكية» (نيويورك ، ١٩٦٦) بمقدمة لجون هوب فرانكلين .

٢ – «بطول هذا الطريق» (نيويورك ، ١٩٣٣) ص ٢٠٣ .

٣ – إليوت م . رادويك : «و . إ . ب . دى بوا : رائد الدعاية للاحتجاج الزنجى» (نيويورك ، ١٩٦٨) ص ٦٨ .

٤ – نيويورك ، ١٩٤٠ . وبدقة أكثر فإن هذا بمثابة تقرير عن مفهوم دى بوا للجنس أو العنصر أكثر منه سيرة ذاتية . وليس هناك حتى الآن تاريخ مناسب لحياته يسردها بدقة طالما أن مذكراته لم يصرح بها للدارسين . وعلى أية حال انظر كتابى رادويك وبرودريك اللذين ورد ذكرهما فى الملاحظتين ٣ ، ٤ .

٥ – نيويورك ، ١٩٢٨ .

٦ – «جون براون» (فيلادلفيا ، ١٩٠٩)

٧ – فرانسيس ل . برودريك : «و . إ . ب . دى بوا : الزعيم الزنجى فى وقت الأزمة» (ستانفورد ، كاليفورنيا ، ١٩٥٩) ص ٨٢ .

٨ – «ثلاثة أعمال زنجية كلاسيكية» ، ص ٢١٤

٩ – «المياة السوداء : أصوات من خلف الحجاب» ، (نيويورك ١٩٢٠) ص ٩

١٠ – «ثلاثة أعمال زنجية كلاسيكية» ص ٢١٤

١١ – المرجع نفسه

١٢ – «غسق الفجر» ، ص ١٤٢ .

١٣ – المرجع نفسه

١٤ – نيويورك ١٨٩٦

١٥ – «غسق الفجر» ص ٤٥

١٦ – المرجع نفسه ص ٩٩

١٧ – برودريك ، ص ٣٣

١٨ – فيلادلفيا ، ١٨٩٩

١٩ – «حيرة أمريكية» (نيويورك ، ١٩٤٤) ص ص ١ ، ١٣٢

٢٠ – «غسق الفجر» ، ص ٦٣

٢١ – «ثلاثة أعمال زنجية كلاسيكية» ، ص ٢٤٠

٢٢ – المرجع نفسه ، ص ٢٤١ .

٢٣ – المرجع نفسه ، ص ١٤٨

٢٤ – برودريك ، ص ٧٠

٢٥ – «ثلاثة أعمال زنجية كلاسيكية» ، ص ٢٨٠

٢٦ – المرجع نفسه ، ص ٣٥٣

٢٧ – برودريك ، ص ١٥٧ .

٢٨ – المرجع نفسه ، ص ١٧٧

٢٩ – رادويك ، ص ٢٤١ .

٣٠ – نيويورك ، ١٩٤٥

٣١ – «ثلاثة أعمال زنجية كلاسيكية» ، ص ص ٢١٤ – ٢١٥ .